

مفاهيم القرآن

(109) التشريعيّ في الإسلام، هو التكامل في البيان والتدريج في النزول؛ لأجل أن بيان الأحكام لا يصحّ إلاّ بعد وجود مقتضيات وشروط في نفس المجتمع. أضف إلى ذلك؛ أن التدريج في البيان والنزول إذا كان متصلاً بالواقعة الخاصّة التي نزل في حقّها القرآن يكون أوقع في النفوس وأقرب إلى الحفظ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا زُرَّ لِلْءَلَاءِيهِ الْقُرْءَانُ حُمْْلَةٌ مِنْ عَنَانٍ فَهِيَ تَكُنُّ لَهُمْ آيَةً فَهُمْ فِيهَا هَادٍ وَنَصْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لَا يَفْقَهُونَ ذَلِكَ وَلِلَّهِ الْغَيْبُ وَهُوَ يُعَلِّمُ الْوَسْطَانِ مَا يُشَاءُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام: 38) وقوله سبحانه: (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُوثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الاسراء: 106). هذا مضافاً إلى ناحية خاصّة بالمجتمع المدنيّ في عهد الرسول كانت تستوجب هذا التدرج؛ وهو كون ذلك المجتمع فاقداً لأيّ قانون اجتماعيّ وأخلاقيّ، فكان تعليمه جميع القوانين الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة دفعةً واحدةً، أو في فترة قصيرة؛ أمراً يكاد يكون مستحيلاً حتّى لو خلت حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من المشاكل والمتاعب التي مرّ ذكرها. وقد كان ذلك عاملاً من عوامل عدم قدرة الأمّة على استيعاب كلّ معالم الشريعة وأبعادها وتفصيلها وتفريعاتها، وأخذها من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم. ثمّ إنّ الأمور وأسباباً عديدةً أخرى كانت تقتضي التدرّج في نزول القرآن الكريم إلى جانب ما ذكرناه، ويمكن تلخيصها فيما يلي: 1- تثبت فؤاد النبيّ إنّ النبيّ إذ كان يتحمّل مسؤوليةً ضخمةً جداً وكان يواجه في هذا السبيل صعوبات ومشقّات صعبة جداً؛ كان لابدّ له من إمداد غيبيّ مستمرّ غير منقطع ونجدة إلهيّة متّصلة؛ ولهذا كان نزول جبرائيل المتكرر موجياً لتسلّيته وتقويته الروحيّة وإلى هذا أشار القرآن إذ قال: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) (الفرقان: 32).